مهامُّ ما بعد التحرير

من حقّنا أن نَفْرح، بعد طولِ حزنٍ وإحباط . فلقد انتصرت المقاومةُ اللبنانيّة، وانهزمتْ إسرائيل والولاياتُ المتحدة، وأصيبت «الواقعيّةُ» العربيّة بنكسةٍ لن تنساها.

من حقّ الشهداء أن يَطّلعوا من التراب والتبغ، وينشروا أجنحتَهم البيضاء على الشقيف والخيام ومرج العيون، ويتمدّدوا أمام الشمس الناعمة.

فلقد دفع الإسرائيليُّون والعملاءُ الدَّيَّةَ: دماً، وقتلى، وذلاً، وانسحاباً.

ومن حقّ الآباء والأمهات أن يَسْكروا من عناق أولادهم الأسرى الذين أَخْرجوهم، بقبضاتهم وصراخهم، من ظلام السجون.

ومن حقّ المثقفين والفنّانين أن يَطّلعوا من إحباطهم وسوداويّتهم: فكلامُهم لم يكن حبراً على ورق، وأغانيهم لم تكن تعويضاً عن عجز، وأحلامُهم لم تكن أضغاثَ أحلام.

من حقّنا جميعاً أن نَفرح: لبنانيّين وفلسطينيّين وعرباً وإيرانيّين، أطفالاً وشباباً وكهولاً وعجائز، يساريّين وإسلاميّين وقوميّين وإنسانيّين، كتّاباً وشعراءَ ومغنّين. فالنصر الجنوبيّ تراكُمٌ لجهودِ هؤلاء جميعِهم، كلّ في مجاله، على امتداد أكثر من اثنَيْن وعشرين عاماً.

ولكنْ...

إنّها ليست ساعةً للفرح، بل هي ساعةٌ للعمل!

إنّها ساعةٌ للعمل من أجل صيانة هذا الانتصار الرائع، وتعميمِه عربيّاً وعالمثالثيّاً، كي يبقى أمثولةً لكلّ شعبٍ مضطَهدٍ، وعبرةً لكلّ قامعٍ مضطهِدٍ.

والمهمة الأولى الملقاة على عاتقنا جميعاً هي ألاّ نحوّل نصرَنا إلى انتصاريّة (triumphalism)، وما تستتبعه هذه النزعةُ من شعورٍ بالفوقيّة والغرور والتنفُّج القوميّ والحزبيّ والمذهبيّ والطائفيّ. وقد أحسن السيد حسن نصرالله صنعاً حين دعا إلى التواضع، والرحمة، وناشَدَ المقاومين عدمَ الاستئثار بالنّصر الذي تحقّق. فالعدوّ مازال قويّاً، وقد زادتْه الهزيمةُ شعوراً بضرورة الانتقام والغَدْر، وهو سيتحيّن الفرصةَ لقضم النصر الجنوبيّ قطعةً تلو قطعة، مستفيداً من «فسيفساء» المجتمع اللبنانيّ وتناقضاته وعصبيّاته وطائفيّاته التي أثبتتْ «جدارةً» كبرى في تدمير لبنان وتدميرِ فكرة المواطنيّة اللبنانيّة. إنّ الانتصاريّة إنْ نجحتْ، لا سمح الله، قد تحوّل الجنوبَ المحرّر قبائلَ متناحرةً تنقَضّ عليه لتنتزع «حصّتَها» من النصر (هذا إنْ قَنعتْ بمبدإ المحاصصة أصلاً!)، ولتجيِّره لمصلحتها في الانتخابات النيابيّة القريبة وفي غيرها من الاستحقاقات القادمة على قاعدة: «الأرضُ لِمَنْ يحرِّرها». وهي قاعدةٌ حقٌّ يُراد به باطل، لأنّ مَنْ حَرَّر الأرضَ ليس حزبَ الله وحركةَ أمل وحدهما (رغم دورهما، ولاسيّما دورُ الأول، الكبير في التحرير) وإنّما هو أيضاً جحافلُ المقاومين والشهداء والأسرى : من «المقاومة الشعبيّة» و«جبهة المقاومة الشعبيّة»، مروراً بـ «القوات المشتركة اللبنانيّة ـ الفلسطينيّة» و«جبهة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة»، ومختلف الجبهات والفصائل التي قاتلت الاحتلالَ منذ عام ١٩٧٨، وانتهاءً «بالمقاومة الإسلاميّة». ويُضاف إلى تلك الجبهات والفصائل، وأولئك المقاومين، دورُ الشخصيّات السياسيّة والفنانين والمثقفين في التحرير، على نحوٍ ما أسلفنا الذكر.

والمهمّة الثانية هي أن نَعْمل على إعادة ربط الجنوبيّ بأرضه، وبالوطن عامةً، وذلك بإقامة مشروعٍ تنمويّ إعماريّ يعيد للمنتصرين سياسيّاً وعسكريّاً ـ كما يقول أحمد بعلبكي ـ «إباءهم المعيشيّ والاقتصاديّ»، ويَمْنع ذوي الحاجة من التعامل الماديّ مع «إسرائيل». ومن الضرورة بمكانٍ الضغطُ على الدولة كي تَسْحبَ ملفَّ الإنماء والإعمار من أدراج «مجلس الجنوب»!

والمهمة الثالثة هي استكمالُ عمليّة التحرير. فنحن لم نربحْ إلاّ حلقةً من حلقات المواجهة: فمازالت مزارعُ شبعا محتلةً، ومازالت «الخروقُ» الإسرائيليّة قائمةً على قدمٍ وساق، ولم تعوِّضنا إسرائيلُ شيئاً من الدمار الذي ألحقتْه بشهدائنا وأسرانا ومؤسساتنا، ولم تَحلّ مشكلةَ اللاجئين الفلسطينيّين عندنا (وهي المسؤولة الأولى والأخيرة عن تهجيرهم وعذابهم). ومن الضرورة بمكان ألاّ تتمّ عمليةُ استكمال مهامّ التحرير تلك بعقد اتفاقيةِ «سلامٍ» بين لبنان والعدوّ، بل عبر أشكال النضال المتنوّعة: من المقاومة الشعبيّة والمسلحة، إلى محكمة العدل الدوليّة، ولجنةِ التعويضات، والأممِ المتحدة. فليس مسموحاً أن نُقايِضَ نصرَنا بتنازلاتٍ على صعيدٍ كثيرةٍ أخرى تَعْترف بشرعيّة الكيان، وتكافئه اقتصادياً على احتلاله (الذي أزالتْه المقاومةُ أصلاً!).

ولكنّ ما يهمّنا التأكيد عليه هنا هو المهمة الرابعة التي تخصّنا نحن بالذات، أي مَنْ أُطلق عليهم لقبُ «الكتّاب» أو «المثقفين». فلم يعد مقبولاً أن يتذرّع أحدُنا بقوّة «إسرائيل» من أجل الدعوة إلى التطبيع أو السلام معها. فهذه القوّة ليست قَدَراً محتوماً، والشعبُ اللبنانيّ ـ الذي نَفْخر الآن، وأكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، بالانتماء إليه ـ استطاع أن يَهْزمها بتصميمه وعنادِه وتحالفاتِه وتكتيكاتِه الذكيّة. ولم يعد جائزاً أن نتكلّم باستحياءٍ أو مواربةٍ عن مطامحنا في التحرير الكامل والحريّة الكاملة، وعن انتمائنا إلى ما أسماه حسن عبد العال بـ «ثقافة العنف الوطنيّ» بديلاً من ثقافة التبرير والاستسلام والواقعيّة. إنّ لحظتنا هذه هي لحظةُ كسر التطبيع الذي أقامه بعضُ المثقفين مع ذواتهم أولاً (كما يَكْتب فيصل درّاج) حين ارتضَوْا أن يلتزموا تطلعاتِ انظمتهم المحدودةِ... والمهزومة!

سماح إدريس